

البعد التداولي للإشارات في الخطاب النثري: مقامة ابن أبي الخصال الأندلسي أنموذجا
The Pragmatic Dimension of References in the Prose Discourse

Maqamat Ibn Abi Al-Khisal Andalusi as a Model

* جلالة خولة¹ / زرقين فريدة²

djellala khawla¹ / zerguine farida²

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية

جامعة 8 ماي 1945 قلما (الجزائر)

University of May 8, 1945, Guelma, Algeria

Djellala.khawla@univ-guelma.dz¹ / Boumahra.farida@univ-guelma.dz

تاريخ النشر: 2022/06/02

تاريخ القبول: 2022/04/28

تاريخ الإرسال: 2022/02/25

ملخص البحث

تعد الإشارات من المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها الدرس التداولي كما تسهم في تحقيق بنية الخطاب وتماسكه، وتهدف هذه الورقة البحثية إلى إبراز أهمية الإشارات بأنواعها (الشخصية، الزمانية، والمكانية، والاجتماعية) في تحديد دلالة الخطاب النثري من خلال السياق التواصل، وقد اخترنا مقامة ابن أبي الخصال الأندلسي التي عارض فيها إحدى مقامات الحريري نموذجاً لهذه الدراسة في محاولة لتعيين مرجعية العناصر الإشارية ضمن ظروف استعمالها. لتتوصل في الأخير إلى أن الإشارات عامل مهم في تأدية المقاصد التبليغية وإنجاح العملية التواصلية.

الكلمات المفتاح : إشارات - خطاب نثري - مقامة - سياق

Abstract :

The references are one of the basic concepts on which the pragmatic lesson is based and contribute to achieving the structure and coherence of the discourse. This research paper aims to highlight the importance of references (personal, temporal, spatial, and social) in determining the significance of the prose discourse through the communicative context. The Maqamat of Ibn Abi Al-Khisal Al-Andalus, in which he opposed one of Al-Hariri's maqamat, is a model for this study in an attempt to

* جلالة خولة Djellala.khawla@univ-guelma.dz

determine the reference of the indicative elements within the conditions of their use. Finally, we conclude that the signs are an important factor in the implementation of the informative purposes and the success of the communicative process.

Keywords: references – prose discourse – Maqamat – context



مقدمة:

تعد الإشارات مبحثا مهما في الدرس التداولي، فهي الدرجة الأولى من درجات التحليل التداولي؛ والتي تعنى بتحديد المخاطب والسياق الزمني والمكاني في الخطاب، بتتبع العناصر الإشارية والرموز التعبيرية المهمة ضمن ظروف استعمالها، وتعتمد على السياق الوجودي المتمثل في المخاطبين، ومعطيات الزمان والمكان¹. وهذا البحث يسلط الضوء على دراسة البعد التداولي للإشارات في الخطاب النثري الأندلسي في رسائل ابن أبي الخصال الأندلسي الذي لقب بـ "رئيس كتاب الأندلس" نظرا لبراعته في الكتابة والتأليف فاقت أدباء عصره، وقد اتخذنا من المقامة التي عارض فيها ابن أبي الخصال مقامات الحريري نموذجا لهذه الدراسة بهدف الإجابة عن عدة تساؤلات تمثلت في:

- ما الإشارات التداولية؟ وما أنواعها؟

- كيف ساهمت الإشارات في تحقيق العملية التواصلية وكشف المقاصد التبليغية في مقامة ابن أبي الخصال؟

ويقسم البحث إلى عدة محاور أساسية هي: عرض موجز لمفهوم الإشارات وتحديد أنواعها، ثم الوقوف عند العناصر الإشارية الشخصية، والزمانية، والمكانية، والاجتماعية وبيان بعدها التداولي في نماذج من المقامة.

أولا: تعريف الإشارات التداولية: وهي العلامات اللغوية التي يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي، لأنها خالية من أي معنى في ذاتها؛ ولذلك سميت بالمبهمات فبالرغم من ارتباطها بمرجع إلا أنه مرجع غير ثابت؛ لأنه يتغير تبعا للسياق الذي ترد فيه الإشارات². فلإشارات بأنواعها دور بالغ في تحديد دلالة التركيب، ولا يقف دور الإشارات في السياق التداولي عند الإشارات الظاهرة، بل يتجاوز ذلك إلى الإشارات ذات الحضور الأقوى؛ وهي الإشارات المستقرة في بنية الخطاب العميقة، عند التلفظ بها، وهذا ما يعطيها دورها التداولي في استراتيجية الخطاب؛ وذلك لأن التلفظ يحدث من ذات بسمات

معينة، وفي مكان وزمان معينين هما: مكان التلفظ، ولحظته إذ تجتمع في الخطاب الواحد على الأقل ثلاث إشارات هي: (الأنا، هنا، الآن).

وعليه تكون الإشارات: "تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بسياق المتكلم مع التفريق الأساس بين التعبيرات الإشارية البعيدة عنه"³. ويرى أغلب الباحثين على أن الإشارات تنقسم إلى خمسة أنواع هي: إشارات شخصية، إشارات زمانية، إشارات مكانية، إشارات اجتماعية وإشارات نصية أو خطائية⁴. وسنركز في هذا البحث على أربعة أنواع من الإشارات هي الشخصية، والزمانية، والمكانية، والاجتماعية؛ لأن إشارات الخطاب قد تلتبس بالإحالة إلى سابق أو لاحق مما أدى إلى إسقاطها من الإشارات عند بعض الباحثين⁵.

ثانيا: البعد التداولي للإشارات في مقامة ابن أبي الخصال:

1- الإشارات الشخصية: وهي بشكل عام الإشارات الدالة على المتكلم أو المخاطب أو الغائب⁶، وأوضح العناصر الإشارية الدالة على شخص هي ضمائر الحاضر، والمقصود بها الضمائر الشخصية الدالة على المتكلم وحده مثل "أنا" أو المتكلم ومعه غيره مثل "نحن"، والضمائر الدالة على المخاطب مفردا أو مثنى أو جمعا، مذكرا أو مؤنثا، وضمائر الحاضر هي دائما عناصر إشارية، لأن مرجعها يعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي تكون فيه⁷، فهي ليست لها معنى، ما لم يتعين ما تشير إليه، فهي أشكال فارغة في المعجم الذي يمثل المقام الصفر⁸. أما ضمائر الغائب فلا تدخل في مجال الإشارات إلا إذا كانت حرة أي لا يعرف مرجعها من السياق اللغوي⁹.

وبالنظر إلى الخطاب النثري الذي بين أيدينا والمتمثل في "مقامة ابن أبي الخصال" نلاحظ أنها تزخر بالعديد من الإشارات الشخصية.

أ- ضمائر المتكلم: ورد في المقامة ضمير المتكلم "أنا" أي ضمير المتكلم المنفصل صريحا مرة واحدة في قوله: "أنا براحتك أسعد، ومن نصّبك أبعد"¹⁰، وبالرجوع إلى سياق الخطاب يظهر أن الضمير "أنا" الذي يحيل إلى ذات المتكلم "الحارث بن همام" قد استخدم لغرض تداولي يكمن في ترك أثر في نفس المخاطب بالتأكيد على نفسه، من خلال حثه على المبيت عنده وأنه سيلاقي من الراحة والسعادة ما ينسيه همه وكدره وما لاقاه في سابق أيامه. وفيه إشارة ضمنية لتخصيص ذاته بحب الخير للشيخ، وإزالة الشك عن نفسه، ومن ثم التأثير فيه لغرض تحقيق مقصده وهو سرقة الشيخ والاحتياال عليه.

واستعمل الضمير المنفصل "نحن"، الذي قسّمته "لاكوف" إلى قسمين هما:

1- نحن الشاملة: التي تجمع المتكلم والمخاطب، فهي تعادل أنا وأنت أو أنتم وتعملهم مشتركين في الاهتمام وبمثابة متكلم واحد مما ينتج عن ذلك قوة عاطفية، وتكمن أهمية استعمالها للدلالة على التضامن وعلى هذا يسميها "فاولر" نحن التعاونية.

2- نحن القاصرة أو الحاصرة: التي تستبعد المخاطب فهي تعني أنا وآخرون، وفيها يفصل المتكلم نفسه عن المخاطب ويشرك آخرين معه في الخطاب والتأكيد على سلطته¹¹.

ففي قوله: " فبيننا نحن بخصاصة"¹²، استعمل الكاتب "نحن القاصرة" أي القسم الثاني من تقسيم "لاكوف"، والغرض التداولي من هذا العنصر الإشاري الجمع بين الراوي (المتكلم) وبين أصحاب الفدادين (المخاطب) وإشراكهما في الخطاب وذلك من خلال السياق الذي ورد فيه، واستعمله كذلك في قوله: " فبيننا نحن نتأمل أسماله"¹³، فالعنصر الإشاري "نحن" في هذا المثال يحيل إلى المتكلم والجماعة الذين التقى بهم في بيت الحريد وهو بيت معزول عن البيوت الأخرى، فجعل منهم شركاء في العملية الخطابية وأبعد المخاطب وجعل العنصر الإشاري الذي يشير إلى المتكلم ومن معه مغايرا للمرجع الذي يشير إلى المخاطب، والقصد منه التأكيد على عدم معرفته به ولا تجمع بينهما أي رابطة، فكان منظره يدعو إلى التأمل وإثارة العديد من التساؤلات: من يكون؟ ولما هو في هذه الحالة المزرية؟، وما دفعه إلى التسول؟

أما ضمير المتكلم المتصل فقد ورد بشكل لافت، ومن أمثلة ذلك قوله: "لما نضوت ثياب الغرّ العمر، وارتقيت قليلا في درج العمر وزرت عليّ الشريعة جيوها، وطوّقتني الفرائض لزومها ووجوها؛ وأسلمني السرّ إلى الجهر، وبرزت إلى الدهر، فتعاطاني مذلّا، وتعاورني مُبتذلاً"¹⁴، فقد تضمن هذا التركيب ضمير المتكلم المتصل من خلال "تاء المتكلم" المرتبط بالكلمات (نضوت، ارتقيت، برزت)، و"ياء المتكلم" التي ارتبطت بالألفاظ (طوّقتني، أسلمني، تعاطاني، تعاورني) والتي يعود مرجعها من خلال السياق على الراوي "الحارث بن همام" - وهو نفس اسم الراوي الذي اعتمده الحريري في مقاماته، فابن أبي الخصال في معارضته لمقامات الحريري لم يغير بطلي المقامة-الذي يتحدث عن نفسه بتعابير فنية وجمالية رائعة، القصد منها بيان انتقاله من مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب، وكيف أصبح يعتمد على نفسه ويخوض غمار هذه الحياة. ويكمن البعد التداولي لضمير المتكلم المتصل هنا في الاختصار والإيجاز والابتعاد عن التكرار الذي يحدث إطنابا؛ ومن ثم الحفاظ على تماسك النص وترابط أجزائه.

وفي مثال آخر قوله: " فوقفت سادراً، ثم وليت مبادراً... وانفصم عن عنقي طوق الأمانة؛ عُجْتُ إلى السروجي صدر الأرحي، ولَبَان الأعوجي؛ فما زلت في خبر ألتقطه، وغيث أهبطه وزهر أعتبطه، أصافح

مُقلّةً بمبَسِّم، وأخَصِفُ حافراً بمَنَسِّم، حتّى مخضتُ عن زُبَدَتِه حَقِينُهُ، واقتدحتُ من زناد الشَّكِّ يَقِينُهُ¹⁵. يحيل الضمير المتصل في الكلمات: (وقفتُ، ولّيت، عنقي، عُجْتُ، ما زلتُ، أصافحُ، أخَصِفُ، مخضتُ، اقتدحتُ) إلى الراوي "الحارث بن همام" الذي يتكلم عن اجتماع الناس حوله بعدما خرج عليهم يهتف بصوت مرتفع، ثم تولى عنهم دون أي مبالاة منه، بقوله: (فوقفت سادراً ثم وليت مبادراً) ليمتطي حصانه ثم يذهب للبحث عن السروجي وهو البطل الثاني لمقامة ابن أبي الخصال؛ وعليه فقد أكسبت الضمائر الخيلة إلى ذات الراوي المقامة ترابطاً واتساقاً، والضمير لا يفهم معناه إلا باستخدامه مقترناً بالسياق الذي يجري فيه الكلام؛ لأن "ممارسة التلغظ هي التي تدلّ على المرسل في بنية الخطاب العميقة، مما يجعل حضور الأنا يرد في كل خطاب، ولهذا فالمرسل لا يضمن خطاباً شكلاً في كل لحظة، لأنه يعوّل على وجودها بالقوة في كفاءة المرسل إليه، وهذا ما يساعد على استحضارها لتأويل الخطاب تأويلاً مناسباً¹⁶.

ب- ضمائر المخاطب: وهي التي يستعملها المتكلم ليشير بها إلى ذات المتلقي من خلال علامات تحيل إليه، ويمكن لهذه العلامات أن تكون ظاهرة على سطح بنية الخطاب، ويمكن أن تكون داخل البنية العميقة.

و قد اعتمد "ابن أبي الخصال" في هذه المقامة على ضمائر المخاطب وذلك من أجل تحقيق العملية التواصلية بين المتكلم والمتلقي، ومن ذلك قوله: " أمّر ما أقعدك وأفردك، فهل يُصدرك من أوردك؛ أطلّيعه فُتّاك أم رذّية نسّاك؟ و توقّف وهماً، ثم انتزع من كِنانته سَهْمًا، وقال: انتسب وإلا فاحتسب"¹⁷ فالمتكلم وهو " أبو زيد السروجي" يخاطب الراوي "الحارث بن همام" بخطاب شديد اللهجة والذي يحيل تداولياً ومن خلال سياق النص على أن "السروجي" توجس شراً من "الحارث" بعد افتراق الجمع وبقائه هو، مستعملاً في ذلك علامات يعود مرجعها إلى المخاطب فتتنوع بين العلامات الظاهرة (الكاف) في الكلمات (أقعدك، أفردك، يصدرك، أوردك) وبين العلامات التي تكون داخل البنية العميقة للنص في الكلمات (انتسب، احتسب) والتي تدل على الضمير "أنت" أي "الحارث بن همام" فجاء الضمير مستترا ليرتكز مجالا للتأويل. ومما لاشك فيه أن هذا الخطاب الموجه إلى المتلقي يستلزم ردا خاصة وأن المقامة مبنية على شكل حوار بين شخصياتها، لتشكّل بنية فنية جميلة ذات مقاصد تبليغية فنجد الرد من "الحارث" بقوله: "استأنس بأودائك، وقر سهامك لأعدائك، أو إنك يا أبا زيد لذو أيد... فارق لمن لا يغرفك وتطامن لمن يستشرّفك"¹⁸ فقد أنكر عليه قوله، وحاول أن يثنيه عن فعله بأن وجه له الخطاب فأشار إليه

باستعمال عناصر إشارية تحيل إليه (الكاف) و بألفاظ تحمل طاقة حجاجية للمتلقى لاستمالاته، وكسب تعاطفه ومن ثم التأثير فيه. كما ورد في المقامة ضمير المخاطب المتصل الدال على الجمع في قوله: "ما هذا الجمود والأكفّ التي لا تجود، ومنكم عهد الجود، مالكم عن زاهد راغب، وجاهد لاغب، وأبي كل أرغب ساغب"¹⁹ ويعود مرجع العلامات اللغوية إلى جماعة تخلقت حول شيخ بالي الأسمال كما يبدو لهم، إلا أنه يملك من الفصاحة والبلاغة ما جعلهم يرقون لحاله، ويتأثرون بكلامه وعذب ألفاظه، وما قصده إلا الوصول إلى هدفه المنشود وهو التكسب منهم والاحتياال عليهم.

ج- ضمائر الغائب: تعد الشخصية الثالثة عنصرا في الخطاب (الحديث) ميزتها أنها تبتعد عن الإبهام ويدعوها "جون سرفوني j. cervoni" "بالالا- شخص - non-personne"، ولكن لا يمكن للضمير أن يعبر عن اللا- شخص - بحيث لا يظهر إلا إذا أراد المتكلم ذلك. تقول "أركيوني orechioni": "إن التصريح القائل أن الضمير (هو) تمكن وظيفته في التعبير عن اللا-شخص- يبدو غير صحيح تماما إنما يكون ذلك في بعض الأساليب التي يرغب فيها المتكلم تحديد طبيعتها"²⁰ إنه يمكن أن نطلق على (هو) الضمير الغيبي، ولا يختلف عن (أنا) و (أنت) ولا يمكن تحديد وظيفة (هو) خارج أفعال الكلام Actes de parole حسب "مانغونو Maingueneau"، فالسياق اللغوي هو الذي يسمح بترجمة (هو)، وربطه بسابقه يقدم له مدلولاً، نفس الشيء بالنسبة لـ: (أنا) و (أنت) اللذين يفتقدان للمرجعية في حالة فقدان الاستعمال الواقعي لهما. فضمائر الشخص تبقى الأكثر حلية، والأكثر معرفة من الضمائر"²¹.

وفي هذه المقامة نجد أن الشخصية الثالثة حاضرة في قوله: "عهدي بهم منذ ثلاث يتناغون سهدا، ويتصاغون جهدا، ومن قبل ما علق جناح رحمة بأب يحفهم، وأتج شعار رافة كان يلقهم، فصبرت وطابهم، واصفرت أطفهم؛ فما بقاؤهم؟ وكيف لقائهم؟"²²، استعمل الكاتب مجموعة من العناصر الإشارية التي تدل على ضمير الجمع الغائب "هم" الذي يعود مرجعه حسب السياق إلى أهل بيته وأولاده، وحمل بعدا تداوليا حيث فيه إشارة ضمنية على حاجتهم وعوزهم من بعد عزهم وعطف والدهم وقربه منهم، وهو ما أكدده في قوله: "فعلنا أنه يكتني عن عرسه، ويومئ إلى قرارة غرسه"²³؛ بمعنى علم المتلقون بأن السروجي يتكلم عن زوجته وأولاده وذلك من خلال السياق.

وقوله أيضا: "فهتفت بالحي هتفة ضمتهم من أقاصيهم، وحشرتهم على بكرة أبيهم؛ فلما انتدوا، وأخذوا مجالسهم واحتبوا، قلت لهم: "أمانة غاديكم وثمره أياديكم!" فقالوا: لك الفداء، وعليك الأداء؛

فما هو إلا أن خامرهم الأنيت، وضاحكتهم تلك الإيابة...²⁴ تنوعت العناصر الإشارية في هذا النص بين ضمائر الغائب المتصلة المتمثلة في "هم" وضمائر الغائب المستترة التي لا يقوم المتكلم بالتلفظ بها لدلالة الحال عليها، وارتبطت مرجعيتها بحسب السياق إلى أهل الحي الذي يسكن فيه "الحارث" وردة فعلهم بعد رؤيتهم له وهو في حالة غضب وانفعال صاحبه صراخ وهتاف أيقظ سكّون المكان، كما أسند لهم دور الفاعلية في قوله: (انتدوا، أخذوا، احتبوا) فكان لضمير الغائب مساهمة في تفاعل الخطاب.

وعليه فالإشارات الشخصية في المقامة كان لها دور بارز في إضاءة جوانب عدّة من بنية الخطاب ومقصدته، فهي ليست إشارات لغوية تدل على المتكلم أو المخاطب فقط بقدر ماهي علامات لغوية لها القدرة على تحقيق تماسك النص وترابطه وإعطائه أبعادا تداولية لها القدرة على التأثير في المتلقي.

2- الإشارات الزمانية: هي كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم، فزمان التكلم هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام، فإذا لم يعرف زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية التيس الأمر على السامع و القارئ²⁵، ومن أجل تحديد مرجع الأدوات الإشارية الزمانية، وتأويل الخطاب تأويلا صحيحا، يلزم المرسل إليه أن يدرك لحظة التلفظ، فيتخذها مرجعا يحيل عليه، ويؤول مكونات التلفظ اللغوية بناء على معرفتها²⁶.

وقد قام "بنفنست" بتقسيم الزمن إلى ثلاثة أقسام معتمدا على علاقة المتكلم بالزمن كما يلي:

1- الزمن الطبيعي: وهو زمن يحس به الإنسان ويدركه في حياته، ويمتاز عن غيره من الأزمنة باللانهاية والخطية بمعنى "الاستمرارية" "La linéarité".

2- الزمن التاريخي: ويمثل فيه الإنسان جزءا لا يتجزأ من البيئة التي ينتمي إليها. ومن اللسانيين من يحاول إبعاد الزمن من المرجعية، إذ يؤكد "بنفنست" أن الأحداث ليست هي الزمن لكن متضمنة فيه²⁷، في حين نجد "أركيوني Orec chioni" تقول: "إن الزمن هو حصر حدث ما في محور الأزمنة بالنسبة لوقت معتمد كمرجع"²⁸. ويعود هذا الزمن إلى تاريخ معين باعتماده مرجعا نظرا لأهميته التاريخية في حضارة معينة.

3- زمن الحدث: وهو الزمن اللغوي أو ما يدعوه "بنفنست" زمن الحديث، أو زمن الخطاب حسب "تودوروف"، وهو البحث عن تمثيلية الزمن في ارتباطه مع لحظة الحديث²⁹.

وتجدر الإشارة إلى أن العناصر الإشارية قد تكون دالة على الزمان الكوني الذي يفترض سلفا تقسيمه إلى فصول، وسنوات، وأشهر، وأيام، وساعات... إلخ. وقد تكون دالة على الزمن النحوي، وقد

يتطابقان في سياق الكلام، وقد يختلف الزمن النحوي عن الزمان الكوني، فتستخدم صيغة الحال للدلالة على الماضي، وصيغة الماضي للدلالة على الاستقبال فينشأ بينهما صراع لا يحله إلا المعرفة بسياق الكلام ومرجع الإشارة³⁰.

وقد لجأ ابن أبي الخصال في هذه المقامة إلى توظيف الإشارات الزمانية في سياق الإنتاج، فلا يمكن للقارئ أن يدرك دلالة الزمن إلا من خلال معرفة السياق الذي ورد فيه. ومن الإشارات الزمانية التي تدل على الزمن الحاضر قوله: "ولما نرف عمر اليوم، وحسر مدّ القوم... فما استوعى حرقه، ولا أوكى سحته وحرقه، إلا ونفس اليوم زاهقة، وفترة الظلماء راهقة، والكواكب قتير في حباب"³¹.

فمن خلال هذا القول نجد أن الكاتب يقصد الفترة الزمنية الحالية فكلمات "عمر اليوم، نفس اليوم، فترة الظلماء" إنما تدل في هذا السياق على معنى الزمن الحاضر الذي يعيش فيه المتخاطبين. فلا بد من معرفة الزمن الحقيقي للتلفظ وتأويل الخطاب تأويلا صحيحا والوقوف على المقاصد التبليغية.

ومن الإشارات الزمانية أيضا قوله: "يا أبا زيد! إن لهذه الأيام أوابد كأوابد الوحش فقيدها بالسهم، وخلدها في الأوهام؛ واعقلها بالمأثور، واكل المنظوم بالمشور؛ ليعرف يومنا بسمياه، ولا يشته به سواه"³². على الرغم من أن الأحداث وقعت في زمن الحدث إلا أن أمنية المتكلم من صديقه أن تخلد أبد الدهر وأن يحفظها —لما لها من أهمية عندهما— في المنظوم والمنثور فنلاحظ أن العنصر الزماني هنا يحمل معنى البعديّة، فالمتكلم في هذا السياق يقصد أنه يتمنى أن تظل ذكرى محفوظة على الدوام.

وتندرج في هذه الرسالة أيضا الإشارات الزمانية الدالة على الماضي وذلك في قوله: "عهدي بهم منذ ثلاث يتناغون سهداً، ويتضاغون جهداً، ومن قبل ما علق جناح رحمة بأب يحفهم، وأنحج شعار رافة كان يلقهم، فصبرت وطأهم، واصفرت أكفهم..."³³. نلاحظ في هذا النص أن الكاتب لم يحدد الزمن الماضي وإنما جاء مبهما حتى أنه لم يذكر في كلمة "ثلاث" التي تفهم من خلال السياق دلالتها على الزمن؛ هل هي ثلاث أيام أم ساعات أم أشهر أم سنوات.. وترك المجال مفتوحا لخيال المتلقي و لجذب انتباهه وربما تساؤله عن الوقت الذي لم يقصده الكاتب مما ترك ذلك بعدا نفسيا وشعوريا على طرقي العملية التواصلية. وكذلك تدل كلمة "من قبل" على الزمن الماضي الذي يدل على حدث سابق للحظة التلفظ والقصد منه تغير حاله وبنية من اليسر والسعة إلى الافتقار وخسارة الأموال في (فصبرت وطأهم بمعنى: لم يبق له حلوبة يحتقن لبنها، واصفرت أكفهم)، والغرض التداولي من العلامة الزمانية الواردة في سياق

الخطاب (من قبل) هو إدراك المخاطب للوضع الذي آل إليه المتكلم وهو ما يلزمه التضامن معه والأخذ بيده.

ف"ابن أبي الخصال" استعمل الإشارات الزمنية التي تدل على الماضي والمضارع والمستقبل ولكن أغلبها كانت تدل على زمن ماضٍ لأن المقامة عبارة عن قصة دارت أحداثها في زمن مضى، وتعد هذه الإشارات من أبرز العلامات اللغوية التي ساعدت على تحديد زمن وقوع الأحداث و الكشف عن خفايا الخطاب ومقاصد المتكلم وذلك بالنظر إلى السياق، وهو ما يعطي بعدا تداوليا للخطاب.

3- **الإشارات المكانية:** وهي عناصر تشير إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم ووقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطب أو السامع، ويكون لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قريبا أو بعدا أو وجهة. ويستحيل على الناطقين باللغة أن يستعملوا أو يفسروا كلمات مثل: هذا و ذاك، هنا و هناك، ونحوها إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى المكان، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر الذي قيلت فيه³⁴، فنجد أن الإشارات المكانية تختص بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقاط مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التحديد المكاني بشكل عام انطلاقا من الحقيقة القائلة إن هناك طريقتان رئيستان للإشارة إلى الأشياء هما: إما بالتسمية أو الوصف من جهة أولى، وإما بتحديد أماكنها من جهة أخرى³⁵؛ وحتى لا يخفق التواصل يجب على الكاتب أن يشير إلى مكان صريح معلوم، وينبغي على المتلقي أن يكون عارفا له.

ومن شواهد ذلك في هذه المقامة نذكر قوله: "فبينما نحن بخنصرة إذ نشأت بحرية فجعلت تسع ولا تشح، وطفقت ثريق ولا تستفيق، وتشجم ولا تنجم... وصاحب البيت الحريد يركض ركض البريد طرباً بالسُّقيا، وتبركا بهذه اللُّقيا، فأضت القلادة وشاحاً، والسقط مصباحاً، والفر باعاً، والأفحوص مرباعاً" -³⁶، فقد ذكر الراوي في هذا الخطاب "خنصرة" وهي بلدة قديمة في الشام، فاستعاض عن الإشارات اللغوية بذكر المكان صراحة، وبيّن في صورة بلاغية جميلة كيف استقبلتهم الأمطار عند وصولهم إلى المكان المنشود "خنصرة" والتي تظهر كما يدل عليه سياق الحديث أنها بلدة ريفية يقصدها الناس للعمل وكسب قوتهم؛ فذكرها مقصود لأنها ترمز إلى العطاء والخير الوفير، ولها تاريخ حضاري وثقافي عريق فقد ذكرها الشعراء في دواوينهم يقول عنها "عدي بن الرقاع" في داليته المشهورة بقوله:

وإذا الرِّبْعُ تتابعَتْ أنوَاهُ فستقى خُنْصِرَةَ الأَخْصِ وجادَهَا³⁷

ويمكن البعد التداولي لهذا المكان في كونه أحد أهم الأمكنة التي جرت فيها أحداث المقامة، وبالتالي يعتبر محور الخطاب الذي تدور فيه معظم الأحداث، والقصد من ذكره تناسب موضوع المقامة مع المكان الذي يعتبر صالحا للتكسب باعتباره أرض خصب ونماء.

وفي مشهد آخر من مشاهد المقامة يقول: "واقْتَدَحْتُ من زنادِ الشكِّ يقينُهُ، وإذا هو بالكرخ، قد استمجد من العفار والمرخ"³⁸. ذكر عنصر المكان "الكرخ" وهو محلة ببغداد أو مخمرة قصدها "السروجي" دارت فيها أحداث أخرى من المقامة، وقد أعقب ذكرها بقوله: "قد استمجد من العفار والمرخ" ويقصد أنه طلب المجد في غير مكانه مصورا إياه بالشجرتين تكثر نارهما، فحمل بذلك إشارة المكان بعدا تداوليا يتمثل في التحقير والإزدراء.

إلى أن يقول: "ولم أزلُ أَلْمَحُه بعيون الرّصد، وأجتذبُ أخبارَه بالسَّببِ المخصّد، إلى أن أعلمت أنه أُدرج في حُبّ، وألقي في غيابات جبّ، وأتّه بعد الصيانة مُمتّهن، وبما شرب مُرتحن..."³⁹ حيث ذكر مكانين هما: "حُبّ" و"غيايات جبّ" يقصد الكاتب من خلال ذكره لهذين المكانين وبالرجوع إلى سياق الخطاب التداولي كيف أنّ طلب الشيء في غير موضعه ومكانه يؤدي إلى نتائج معاكسة لما هو منتظر، فكانت مغبة ذلك مآلت إليه حاله من خسارة ماله وإدخاله في حرة ثم رميه في قعر بئر؛ وفيه حاول الكاتب أن يوصل رسالة تفيد أن ما أخذ بغير حق يذهب هباءً فالعناصر الإشارية المكانية تضافرت مع مقصد الكاتب.

وفي موضع آخر من المقامة يقول: "فقم حتى تعرف عاديّ، وتقف عند إرادتي. فانتهي بي إلى إيوان في بستان؛ كأنما رصّع بالحدود، أو اقتطع من جنان الخلود؛ وإذا الرياحين تنصّد، والأزاهر تخضد، وأزرار الحجاب على لُبات الأباريق تُعقد، وكأنما خرّت هناك أسلاك، أو انتشرت أفلاك!"⁴⁰ الكاتب من خلال إشارته للمكان "إيوان في بستان" ببغداد ووصفه له يحاول أن يبين الحال الذي عليها صاحب الكرخ من غنى وترف العيش، ومقصد الكاتب من وصف هذا المكان أن يجعله معلوما عند المتلقي.

ونلاحظ أن مشاهد المقامة وأحداثها قد انتقلت مكانيا من الشام إلى بغداد ولم تحصل في مكان واحد، وعليه أصبح من الصعب تحديد قصص المتكلم إلا بتحديد مكانه أثناء السياق الاستعمالي للملفوظ.

فقد اهتم "ابن أبي الخصال" بالمكان وحوله من دلالاته الجغرافية إلى دلالة شخصية، ولا يمكن فهم الإشارات المكانية والوعي بأهميتها إلا بالعودة إلى السياق الذي وردت فيه، فهي تثري الخطاب وتبين أماكن حصوله وتربط بين أجزائه، كما تسهل العملية التواصلية بين أطراف الخطاب .

4- الإشارات الاجتماعية: وهي ألفاظ و تراكييب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية أو علاقة ألفة و مودة. والعلاقة الرسمية يدخل منها صيغ التبجيل في مخاطبة من هم أكبر سنا ومقاما من المتكلم، كاستخدام "أنتم" للمفرد المخاطب، و "نحن" للمفرد المعظم لنفسه، وهي تشمل أيضا الألقاب مثل: فخامة الرئيس، جلالة الملك، سمو الأمير، كما تشمل أيضا: السيد، السيدة، الأنسة. ويدخل فيها أيضا: حضرتك وسيادتك، وسعادتك وجناك...⁴¹.

تحدد العلاقة الاجتماعية بين المتخاطبين من خلال العلامات اللغوية والسياق الذي ترد فيه ومن ذلك قوله: " يا يبايع التدى، ومصاييح الهدى، ومفاتيح الجدا، وحياة الحياة وردى الردى"⁴². "السروجي" في هذا الخطاب يحاول أن يخلق له جوا من المحبة والألفة بين الناس بندايمهم وجلب انتباههم بأوصاف جميلة وكلمات رقيقة، ويعقب ذلك بحجة بالغة تمثلت في قوله: "ما هذا الجمود والأكف التي لا تجود"⁴³، وساهمت في بلوغ قصد المتكلم والتأثير في المتلقين، وحثهم على العطاء والجود فيكون له نوال المنشود.

وتظهر الإشارات الاجتماعية في قوله: "أيها السّواد الغريب والشخص المريب! أمر ما أقعدك وأفردك، فهل يصدرك من أوردك؛ أطلية فتاك أم رذية نساك؟"⁴⁴ فمن خلال الألفاظ (السّواد الغريب، الشخص المريب) تتحدد العلاقة بين المتكلم والمتلقي، وكيف بدت متوترة يشوبها الخوف والشك، ففي هذه المقامة نجد أن العلاقات الاجتماعية بين الشخصيات تتغير بين الحين والآخر، فما إن ألزم طرفٌ الحجة للطرف الآخر أثر فيه بكلامه وحسن بلاغته، والسعي في إفهامه وتغيير أفكاره، وإبانة مقصده أصبح قلبه يحمل ودا وللصفح محبا. كما حدث مع بطلي المقامة والتي تفهم من خلال السياق.

ومسألة تحديد نوع العلاقة الاجتماعية بين أطراف الخطاب مسألة نسبية إذ تختلف من موقف لآخر، ومن حيث قرب أو بعد الأطراف، سواء كان القرب أو البعد ماديا أو اجتماعيا أو نفسيا، وتعد الإشارات الاجتماعية من المجالات المشتركة بين التداولية وعلم اللغة الاجتماعي⁴⁵.

البعد التداولي للإشارات في المقامة موضوع الدراسة يتضح من خلال إبراز خصوصية النص التخاطبية، وميزاته التفاعلية بالعودة إلى سياق الاستعمال الذي له بالغ الأهمية في تفسير الكلام وتعيين المشار إليه.

والحفاظ على تماسك النص وترابط أجزائه من خلال قدرة تعبيرية فنية وجمالية تحمل طاقة حجاجية وإنجازية للتأثير في المتلقي وتحقيق قصده، مما ينجح العملية التواصلية ويعطي قيمة وظيفية وأبعادا تداولية.

خاتمة:

نخلص في نهاية هذا المقال إلى مجموعة من النتائج تمثلت في:

- الإشارات الشخصية داخل المقامة كشفت البعد التبليغي والتواصل من خلال ارتباط الضمائر بالسياق، وإحالتها على المتخاطبين، وقد تنوعت الضمائر بين ضمائر المتكلم والمخاطب وضمائر الغائب، وبعض العناصر الإشارية كانت في البنية العميقة للمقامة مما تطلب منا الوقوف على معطيات الخطاب لتحديد مرجعها وفق ظروف استعمالها للوصول إلى مقاصد المتكلم التي أكسبتها قيمتها الوظيفية وأبعادها التداولية.
- تنوعت الإشارات الزمانية بين الزمن الحاضر والماضي والمستقبل. فتحديد زمن وقوع الحدث يساهم في تأويل الخطاب تأويلا صحيحا والوقوف على المقاصد التبليغية بحسب سياق الخطاب التداولي.
- كما قدمت الإشارات المكانية للمتلقى المساعدة في معرفة مواضع المتخاطبين مما يجعل التواصل أسهل، واستطاع ابن أبي الخصال من خلال ذلك منح رسائل خفية لا تفهم مقاصدها إلا من خلال السياق.
- اتضح أن الحضور الزمكاني للإشارات داخل المقامة له دور مهم في إنجاح العملية التواصلية بين عناصر الخطاب.
- ساعدت الإشارات الاجتماعية على تحديد العلاقة بين المتخاطبين من حيث الحب والمودة أو التوتر والخوف، وفي ضوءها تتحدد مقاصد المتكلم وأهداف الخطاب بالنظر إلى السياق التداولي للخطاب.

الهوامش:

¹- ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، ط 1: 1987، ص 61-67.

- ² - ينظر : عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، مارس 2004 ص 80-81 .
- ³ - مرجع نفسه، ص 81 .
- ⁴ - محمود أحمد نخلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة، د ط، 2002م، ص 17.
- ⁵ - مرجع نفسه، ص 24.
- ⁶ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 82 .
- ⁷ - محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 17-18 .
- ⁸ - الأزهر الزناد، نسيج النص: بحث فيما يكون به الملفوظ نصا ، المركز الثقافي العربي، ط 1: 1993، ص 116 .
- ⁹ - محمود أحمد نخلة : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ص 18 .
- ¹⁰ - أبو عبد الله ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 1987 ص 430.
- ¹¹ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 293-294.
- ¹² - أبو عبد الله ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، تح: محمد رضوان الداية ص 421.
- ¹³ - مصدر نفسه، ص 422
- ¹⁴ - مصدر نفسه، ص 420
- ¹⁵ - مصدر نفسه، ص 435-436.
- ¹⁶ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 82 .
- ¹⁷ - أبو عبد الله ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، ص 426.
- ¹⁸ - مصدر نفسه ص 426-427.
- ¹⁹ - مصدر نفسه ص 424.
- ²⁰ - ذهبية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب ، دار الأمل ، د ط ، د ت ص 102-103.
- ²¹ - مرجع نفسه: ص 103 .
- ²² - أبو عبد الله ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، ص 424.
- ²³ - مصدر نفسه، ص 424.
- ²⁴ - مصدر نفسه، ص 435.
- ²⁵ - محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 19 .
- ²⁶ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 84 .
- ²⁷ - ذهبية هو الحاج، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، ص 105 .
- ²⁸ - مرجع نفسه، ص 105 .

- ²⁹ - مرجع نفسه، ص 105 - 106 .
- ³⁰ - محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 21 .
- ³¹ - أبو عبد الله ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، ص 425 - 426 .
- ³² - مصدر نفسه، ص 448 .
- ³³ - مصدر نفسه، ص 424 .
- ³⁴ - محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 21 .
- ³⁵ - عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، ص 84 .
- ³⁶ - أبو عبد الله ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، ص 421 - 422 .
- ³⁷ - مصدر نفسه، ص 421 .
- ³⁸ - مصدر نفسه، ص 436 .
- ³⁹ - مصدر نفسه، ص 436 .
- ⁴⁰ - مصدر نفسه، ص 438 .
- ⁴¹ - محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 25 .
- ⁴² - أبو عبد الله ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، ص 424 .
- ⁴³ - مصدر نفسه، ص 424 .
- ⁴⁴ - مصدر نفسه، ص 426 .
- ⁴⁵ - ينظر: محمود أحمد نخلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 26 .